

الجابري في ميزان نقد العقل العربي قراءة في أعمال جورج طرابيشي
Jabri in the balance of criticism of the Arab mind Read the
works of George Tarabishi
 د. رباني الحاج، قسم الفلسفة جامعة معسكر- الجزائر

ملخص: ظل الجابري منذ مطلع الثمانينيات يصنع بحضوره الفكري الحدث، داخل الأوساط الفكرية والفلسفية على اختلاف توجهاتها، بل قد لا نجانِب الصواب أن مشروع النقد العربي أخذ من البحث والدراسة والاهتمام، أكثر من أي مشروع آخر في الساحة العربية خلال العقدين الأخيرين من الزمن، فهو بآثاره لإشكالية العقل كموضوع للدراسة في التراث العربي الإسلامي، محاولاً قراءة هذا التراث من داخله والتكيف مع معطياته الثقافية الأصيلة، والعمل على تجديده من الداخل وربطه بمعطيات العصر الحالي، استطاع أن يلفت انتباه القراء والدارسين، بل استطاع أن يفرض عليهم التفاعل مع خطابه الفكري بشكل جاد وصارم إن لم نقل استطاع أن يكسب ثقتهم في هذا الخطاب مما جعلهم يعلقون أملهم النهضوي والحدائي عليه، فهذا المشروع بالرغم من حملة لشعار "النقد" إلا أنه بمنهجية الإستمولوجية، نجح في تجاوز الصعوبات التي لاقتها الكثير من المشاريع الفكرية في الساحة العربية باعتبارها مشاريع انطلقت من مواقف نقدية مباشرة وصريحة للتراث، فالجابري بالرغم من فكره النقدي أصبح علماً داخل أوساط واسعة جداً، إلا أنه أثار انتقاد كبار المفكرين والدارسين لمشروعه النقدي، إذ بقدر ما أشاد هؤلاء بأهمية هذا المشروع وموسوعيته إلا أنهم وجهوا له نقداً على مختلف المستويات ومن مختلف الجوانب، لكن لا أحد خصص هذا الكم الكبير من البحث والدراسة والتقيب في ثنايا كتابات الجابري، مثلما فعله جورج طرابيشي الذي عنون مشروعه "نقد نقد العقل العربي" وهو مشروع بكامله موجه لنقد ودراسة مشروع الجابري لذلك نقف في هذه الورقة على مشروع طرابيشي الفكري من خلال نقده لمشروع الجابري، فما هو النقد الذي وجهه طرابيشي للجابري؟ وما هي الأسس والمنطلقات والخلفيات المنهجية والمعرفية التي تؤسس وتؤطر وتوجه مشروع نقد نقد العقل العربي؟

الكلمات المفتاحية: نقد، العقل العربي، الإستمولوجية، الخطاب الفكري.

Abstract: Since the beginning of the 1980s, Al-Jabri has been making his intellectual presence within the intellectual and philosophical circles of different orientations. It may not be out of the question that the Arab Monetary Project has taken more research, study and attention than any other project in the Arab arena during the past two decades. The mind as the subject of study in the Arab Islamic heritage, trying to read this heritage from within and adapt to its original cultural data, and work to renew it from the inside and link with the data of the current era, was able to draw the attention of readers and scholars, but was able to force them to interact with his intellectual speech doubt This project, although carried the slogan "criticism," but by its method of epistemology, succeeded in overcoming the difficulties encountered by many intellectual projects in the Arab arena as projects Al-Jabri, despite his critical thought, became a

science within a very wide circle. However, he drew criticism from the great thinkers and scholars of his critical project. As much as they praised the importance of this project and its theme, But no one has devoted so much research, study and exploration to the writings of al-Jabri, as did George Tarabishi, whose project is entitled Criticism of the Criticism of the Arab Mind, an entire project directed at criticizing and studying the Jabri project. Therefore, we stand in this paper on Tarabishi's intellectual project through Criticism of the project Jabri, what is the criticism of Tarabishi of Jabri? What are the foundations, premises, and methodological and conceptual backgrounds that establish, frame and guide the criticism project of the Arab mind?

Keywords: criticism, Arab mind, epistemology, intellectual discourse.

تقديم:

خصص جورج طرابيشي (1939- 2016) فترة مهمة من حياته لقراءة وتشريح المشروع الفكري لمحمد عابد الجابري (1935- 2010) وفعلا استطاع طرابيشي أن يحيط بمشروع نقد العقل العربي بشكل لم يضاهيه فيه غيره من الباحثين والدارسين، لقد أثبت ثقله الفكري والمعرفي بوقوفه على تفاصيل وحيثيات ودقائق القضايا التي عالجها الجابري في مؤلفاته العديدة فاستطاع محاكمة الطروحات الفكرية، إنطلاقا من مصادرها ومنابعها وروافدها المعرفية بشكل صارم وحاسم، دون إغفال أبسط ضروريات النقد المنهجي والمعرفي، والحفر في ثنايا المعلن والمسكوت عنه، والكشف عن ما لم يكشف عنه الجابري في خطابه للقارئ والباحث العربي، في هذه الورقة البحثية، نقف على جانب من الجهود الفكرية التي خصصها طرابيشي لنقد مشروع نقد العقل العربي، محاولين التركيز على أهم القضايا التي أثارت انتباهه والمواقف التي اتخذها منها؟ كما هو معروف لدينا، فإن الجابري وجه نقدا قويا للمشاريع الفكرية السابقة عليه والمعاصرة له، ووصفها بأنها تشترك في نقطة أساسية، فهي جميعها "سلفية" أي أنها تقوم على نموذج جاهز، سواء كان ذلك النموذج حديثا ومعاصرا أو قديما وتراثيا، وهو ما يعني أن تلك المشاريع ما هي إلا تعبير عن إيديولوجيات وقناعات جاهزة، وفي هذا تعطيل للعقل، لأن العقل لن يكون عقلا إلا عندما يعي ما يعرفه ويدرك كيف تم بناءه وتكوينه، أي عندما يعي ذاته ويكون موضوعا لتفكيره، وبتعبير آخر، عندما يعرض أدواته المعرفية للنقد والمساءلة، هذا ما جعله - الجابري - يركز اهتمامه على الجانب المعرفي في الثقافة العربية، أي كيف يفكر العقل العربي في ذاته وفي موضوعاته، وحتى نعرف كيف يفكر يجب أن نعرف كيف تكون وكيف تم بناءه؟

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة التي بين أيدينا في تسليطها الضوء على ما قدمه جورج طرابيشي من جهود فكرية ونقدية للفكر العربي المعاصر، وخاصة في تخصيص وتوجيه تلك الجهود لأحد المشاريع الفكرية التي أثارت بطروحاتها نقاشا واسعا في المغرب والمشرق وعلى امتداد العالم العربي الإسلامي وهو مشروع " نقد العقل العربي " لصاحبه محمد عابد الجابري، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، أننا نسجل ملاحظة ذات أهمية في -نظرنا- في سياق الفكر العربي المعاصر

وهي ندرة ثقافة الحوار بين المفكرين العرب، فهذه المشاريع تميزت بالإنغلاق والانعزال عن بعضها البعض لذلك بقيت آثارها محدودة على المجالات التي تقع خارج المحيط الأكاديمي الضيق، فتخصيص طرابيشي مشروعاً نقدياً كاملاً لهذا المشروع يعتبر في حد ذاته تأسيساً لثقافة الحوار والإعتراف داخل السياق الفكري العربي المعاصر، رغم التحفظات والانتقادات الموجهة له، تكمن أهمية هذه الدراسة في تثمين جهود طرابيشي النقدية وفي الإشارة إلى مساهمته في تعميق النقد، عن طريق عنوانه مشروعاً بنقد النقد وهذا ما يساهم في استيقاظ العقل في سياقنا المعاصر من سيئاته وكسله واستسلامه لبعض الأحكام القاسية، كما أننا نعتبر أن الجابري ورغم ما لقيه مشروعاً من اهتمام إلا أن اهتمام طرابيشي بهذا المشروع كان في حد ذاته مشروعاً، لذلك تأخذ هذه الدراسة كامل أهميتها.

عصر التدوين ومشكلة الإطار المرجعي للعقل العربي:

لا يهتم الجابري بالثقافة السائدة في الحياة اليومية أو ما نسميه عادة بالثقافة الشعبية، بل يوجه نظره نحو الثقافة العالمية، أي ثقافة العلماء، الثقافة المكتوبة والمدونة، لهذا وضع لهذه الثقافة زمناً خاصاً بها هو زمن عصر التدوين، هذا العصر الذي يمثل معياراً لما قبله وما بعده، ففيه تكون العقل العربي ووضعت بنيته.

يقول طرابيشي في "عصر التدوين" الذي يفترض الجابري أنه "لا يخضع لمفهوم القبلية والبعدية كما ينسحبان على الزمن الاجتماعي الطبيعي" والذي يريد أن يقرأ من خلاله كونه واقع العقل العربي في امتداده السابق واللاحق، هو في واقعه عصر "مصنوع" عصر مزاح بالإسقاط من المابعد إلى الماقبل، عصر جرت "فبركته" في وعي الأخلاق ليجعل إطاراً مرجعياً مفترضاً لوعي الأسلاف، وبكلمة واحدة، إنه ليس عصر التدوين كما بنى نفسه حسب فرضية الجابري على امتداد المائة سنة ما بين منتصف القرن الثاني ومنتصف القرن الثالث للهجرة، بل هو "عصر التدوين" كما جرى بناؤه في ماضٍ لاحق" (جورج طرابيشي، 1998، ص10).

يريد طرابيشي لفت الانتباه إلى مسألة مهمة في هذا الصدد تتمثل في الدور الذي يلعبه عصر التدوين في تكوين صورة معينة عن الماضي، وبالتالي فهذا العصر ليس مجرد حقيقة موضوعية، بل هو عصر تم بناءه أي تشكيله بطريقة تجعل الماضي تابع للحاضر، والسابق خاضع لللاحق، فهو ليس تعبير عن الواقع إنما هو عصر تمت صناعته بقصد توجيه الوعي، ويتساءل طرابيشي "ما الذي يسكت عنه نص الجابري المطول عن "عصر التدوين"؟"

إنه يسكت عن المصدر الذي أخذ منه الفكرة والتسمية، أي عن أحمد أمين في كتابه "ضحى الإسلام" (جورج طرابيشي، 1998، ص14).

يكرر طرابيشي هذه الملاحظة بشكل ملفت للانتباه، أي عدم كشف الجابري عن مصادره في الكثير من المواضع ويؤكد أن الأمر لا يتعلق بالصدفة، إنما هو أمر يتكرر بشكل يثبت تعمد الجابري في فعل ذلك، والحقيقة أننا لا نستطيع أن نتحدث عن نقد العقل، ثم نغفل المصادر التي سبقتنا في دراسة الإشكاليات المطروحة أمامنا للبحث، فهذا أمر يشكك في موضوعية ما نطرحه، رغم أن الجابري، لا نستطيع تجاوزه في سياق الفكر العربي المعاصر.

يقول طرابيشي موجهًا نقدًا لاذعًا للصورة التي يضعها الجابري لعصر التدوين "إنما نحن في الحقيقة أمام رؤية "مجلة" جرى "تعليلها" في القرن (3 هـ) و (4 هـ) برسم الاستهلاك في القرون التالية وهي عينها التي عاد الجابري في نهاية القرن الحالي يأكل من طبقها وقد غاب عنه أنه لا يجوز أن يعاد تجليد المجلد أو أن يعاد تسخينه مرتين، ولا سيما أن الدراسات التراثية المتراكمة خلال، النصف الثاني من القرن (20م) قد أبطلت أسطورة "عصر التدوين" من أساسها" (جورج طرابيشي، 1998، ص28-29).

هذا النقد القوي لفكرة عصر التدوين هو نقد موجه للأساس الذي يقوم عليه مشروع نقد العقل العربي بكامله، فالعقل العربي كما يتصوره الجابري، هو ثمرة هذا التدوين أو التحول من الشفهي والمروي إلى المكتوب والمثبت والمقنن، وهدم الحقائق التي يضيفها الجابري على هذا العصر يؤدي إلى هدم كل ما يترتب عليها من نتائج وتصورات، وإذا كان توجيه النقد للمشاريع السابقة على أنها "سلفية" فهذا هو طرابيشي يرى أن الجابري يكرر صورة تراثية تجاوزها الزمن، وليس من العسير كما يرى أن ندرك أين تثر الجابري بمنهجه الذي يصفه بأنه إبستمولوجي، والقصد هنا، تصديقه لرواية "الذهبي" عن "عصر التدوين"، فالذهبي هو وارث صورة "عصر التدوين" المصنوعة من قبل الأجيال السابقة له ومورث هذه الصورة المصنوعة، بعد إدخال المزيد من الرتوش عليها إلى الأجيال اللاحقة له، ولعله هو من حدد مواصفات هذه الصورة- الأسطورة عندما يقول، إنه قبل "عصر التدوين" أي قبل عام 143 هـ، كان "علم الصحابة والتابعين، في الصدور، فهي كانت خزائن العلم لهم، فنحن لسنا هنا أمام صورة مطابقة للواقع التاريخي بقدر ما نحن أمام (حاجة إيديولوجية) إلى بناء واقع تاريخي كهذا" (جورج طرابيشي، 1998، ص29).

نجد في هذا النقد إشارة واضحة إلى وضع هذا التصور الذي يعطيه الجابري لعصر التدوين في خانة "الأسطوري الإيديولوجي"، وبالتالي غير الموضوعي، أي أن المشروع الفكري لنقد العقل العربي بكامله تحكمه أهداف إيديولوجية من الوهلة الأولى، لكن يجب الإشارة إلى أن صاحب هذا المشروع لا يلغي العامل الإيديولوجي نهائياً، فهو إضافة إلى منهجيته التاريخية والنبؤية، يستند إلى الطرح الإيديولوجي في قراءته للتراث، بمعنى أنه لا يتوهم وجود قراءة موضوعية تامة لهذا التراث، فكل قراءة هي قراءة من أجل غايات وأهداف معينة، وهذا لا يمكن إنكاره على أي دراسة يكون موضوعها التراث، وبالتالي لا يمكن لأي دراسة مهما كانت مدعية للموضوعية أن تقف عند حدود الواقع التاريخي كما هو دون أن تسقط عليه حاجات وأهداف عصرها، لكن يبدو، أن ما يعيبه طرابيشي على الجابري، هو النظر إلى هذا العصر بمنطق المعجزة، عصر انبثاق العلوم بشكل مفاجئ دون مقدمات، الانتقال مباشرة من مرحلة الحفظ في الصدور إلى مرحلة التدوين في الكتب دون تدرج أو تحول تدريجي، من هنا يتساءل "ما الغائب الأكبر عن نص الجابري عن نص السيوطي/ الذهبي عن "عصر التدوين"؟

إنه التدوين الأول، النموذج الأول لكل تدوين لاحق، الذي هو تدوين القرآن" (جورج طرابيشي، 1998، ص59)، ويتجاوز الجابري، إشكالية تدوين القرآن كنص مؤسس، فيلاحظ طرابيشي، أنه بهذا القفز على الواقعة القرآنية يكون قد "فوت على نفسه وعلى قراءه فرصة ثمينة لنقد فعلي للعقل العربي المكون" (جورج طرابيشي، 1998، ص59).

إذ يرى طرابيشي أن الجابري أخطأ الموضوع الحقيقي للعقل العربي، ووجه نقدا لعقل مفبرك ومودلج، مما جعل جانبا أساسيا من مجال البحث في الثقافة العربية يبقى خارج إطار الدراسة والنقد، وعليه فإن ما يفعله الجابري " رغم دعوى الحفر النقدي والابستمولوجي على مستوى العقل بالذات، هو الزج بواقعة تدوين القرآن، أو "مصحفته" كما يمكن أن نقول في غيتو (اللا مفكر فيه)، أو الممتنع التفكير فيه" (جورج طرابيشي، 1998، ص60).

وقع الجابري في نظر صاحب "نقد نقد العقل العربي" في انحراف ابستمولوجي كبير، بتجاوزه لإشكالية تدوين القرآن، أو تحوله من الصدور إلى المصحف، ومن كونه وحيا إلى كونه نصا مدونا، وراح يبحث عن تدوين العلوم التي تدور حوله، أي تجاوز الأصل إلى الفرع، كما تجاوز أهم عملية تدوين تدخل فيها العقل إلى عملية تدوين ثانوية إذا ما قورنت بالنص الأول الذي شغل العقل العربي وهو القرآن، فالمنطلق الأول قام على إيديولوجيا المسكوت عنه، والتعامل مع التراث تعاملًا انتقائيا، وهكذا في المحصلة ليست المسألة فيما يخص عصر التدوين لا مسألة تقديم أو تأخير كرونولوجي، ولا مسألة إهمال أو سهو بيبليوغرافي، وإذا صح أن الأمر يتعلق فعلا بـ"الإطار المرجعي للعقل العربي" فإن القفزة من عصر تدوين القرآن إلى عصر تدوين الحديث، تحجب عن النظر شطرا واسعا من ذلك الجسم المرجعي الذي يفترض أنه يتمثل في "سفينة الفضاء" فصر تدوين بلا واقعة المصحفة أشبه بسفينة فضاء انتزعت منها حجرة القيادة. بل نستطيع أكثر من ذلك، أن نتحدث هنا عن عملية "تضليل" إستراتيجية (جورج طرابيشي، 1998، ص64).

إلى هذا الحد يصل الضرر الذي يتصوره طرابيشي للعقل العربي، بل يرى أن الجابري يهدف منذ الوهلة الأولى إلى تضليل الإنسان العربي، بوضعه إطارا مرجعيا للعقل العربي والثقافة العربية، ويحاول أن يمنع القارئ من مغادرته أو التفكير خارج مجاله، وكأنه إطار ضروري يفرض علينا حقيقته، وليس مجرد افتراض يمكن مساءلته ومراجعته، فهو إذا إطار تفكر فيه، بل يصل طرابيشي إلى اعتبار العقل العربي كما صاغه وتصوره الجابري فاقدا لعنصر القيادة أي فاقدا للبوصلية التي تؤطره وتتحكم فيه فعلا لا افتراضا.

لم ينقد الجابري العقل العربي، النقد الذي يكشف عن تكوينه وبنيته وإيديولوجيته، إنما أخرجه من سياقه التاريخي وقام بإخضاعه لحاجاته وأهدافه، فتصرف فيه وفقا لذلك، دون مراعاة الواقع التاريخي الذي تشكل وانبنى فيه هذا العقل، أي أنه أعاد تشكيله وبناءه وفقا لتصوراته وقناعاته الخاصة، وهي قناعات كما يرى طرابيشي ترفض القيام بثورة لاهوتية.

العقل ومشكلة المعقول واللامعقول في فكر الجابري:

يأخذ طرابيشي على الجابري تقسيمه العالم إلى المعقول واللامعقول، ولا يرى بينهما أية علاقة، ومن ثم يرفع من شأن ما هو معقول ويحط من شأن ما يصنفه في دائرة اللامعقول سواء كان ذلك في مجال الدين أو في مجال العقل، لكن هذا التقسيم ينتقل من مجال الموقف النظري إلى مجال الإسقاط التاريخي الحضاري والجغرافي، وهو ما ينعكس على هوية العقل، لذلك يقول طرابيشي "إن المقاربة الجابرية المعيارية لإبستمولوجيا العقل لا تلبث أن تترجم عن نفسها حالا

إلى مركزية إثنية شرسة على صعيد أنثروبولوجيا الحضارات" (جورج طرابيشي، 1996، ص30).

يماهي الجابري بين العقل والحضارة أحيانا، كما يماهي بين العقل والجغرافيا أحيانا أخرى، فيقسم الحضارات إلى حضارات العقل والعلم وأخرى للامعقول والسحر، فينتصر للحضارتين اليونانية والعربية ويحط من شأن الحضارات الشرقية كالبابلية والهندية باعتبارها حضارات للامعقول تغيب العقل والعلم، ينقد طرابيشي هذا التقسيم غير الموضوعي في نظره فيعمل على إثبات ما يطعن فيه فيشير إلى حضور السحر مثلا في الحضارة العربية الإسلامية قائلا "والشاهد الذي نستقيه على كل حال لا من مرجع ثانوي أو عارض، بل ممن يمكن اعتباره الممثل الأوسع تمثيلا للعقل الحضاري العربي الإسلامي، أي من صاحب "المقدمة" التي تقوم لهذا العقل مقام "الموسوعة" بالمعنى الحديث ففي الفصل الذي خصصه ابن خلدون لـ "علوم السحر والطلسمات" يقول "واعلم أن وجود السحر لامرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي ذكرناه وقد نطق به القرآن" (جورج طرابيشي، 1996 ص45-46).

فالسحر ومنه اللامعقول لا علاقة له بالثقافة والحضارة، بل هو مرتبط بالوجود البشري وكل حضارة لها جانبها اللامعقول، فهذا النص الذي قامت عليه ومن خلاله حضارة العرب يثبت وجود السحر، باعتباره حقيقة ثابتة أما الحضارة التي يتخذها الجابري معيارا للعقل واعتباره نموذجا له، فيترك طرابيشي الإجابة لواحد من أشهر من درسو علاقة اليونان باللامعقول، البروفيسور إ.ر. دودس أستاذ الهلنيات في كتابه "الإغريق واللامعقول" يقول "إننا لا نستطيع أن نغزو إلى اليونانيين القدامى صناعة ضد أنماط التفكير "البدائي" وهي صناعة لا نلتقيها أصلا لدى أي مجتمع يقع تحت ملاحظتنا المباشرة" (جورج طرابيشي، 1996، ص47).

لا وجود لنزعة عقلانية ذاتية لأي حضارة أو ثقافة كل حضارة يمتزج فيها المعقول باللامعقول، ولا علاقة بين العرق والثقافة كما تصور الجابري، أو بين العقل والجغرافيا كما افترض في تقسيمه الاستعماري للعقل على أساس البرهان والبيان والعرفان، وهو ما يوجي بحصر التفكير الفلسفي في نطاق البرهان دون غيره، الأمر الذي يدفع طرابيشي إلى التساؤل قائلا "فما دام مفكرون دينيون من أمثال القديس أغسطينوس والقديس توما الإكويني وبسكال يدرجون في تاريخ الفلسفة الغربية، في عداد الفلاسفة، فلماذا لا يدرج في عداد هؤلاء كبار الروحانيين الهنود أمثال شنكرا ورامانوجا؟ وما دام أحد لا يماري في أن أفلوطين فيلسوف، فلماذا يتجاهل فيلسوف مثل لاو-تسو، مؤلف "كتاب الطاو والطو"؟ وإذا كان هوبز يحتل موقعه في رأس قائمة الفلاسفة السياسيين فبأي حق يستبعد منها كونفوشيوس، أبو الفلسفة السياسية الصينية؟ وحتى من وجهة النظر الميتافيزيقية وهي وجهة نظر مؤسسة للفلسفة بما هي كذلك، فإن الفلسفة الهندية تتمتع بامتياز مواصلة التقليد الميتافيزيقي، فيما الفلسفة الغربية نفسها دخلت في قطيعة مع هذا التقليد ابتداء من منتصف القرن 19م" (جورج طرابيشي، 1996، ص63).

يوجه طرابيشي سهام النقد للتصور الذي يضعه الجابري للعقل والعقلانية، ويشير إلى ضيق الأفق الذي يرسمه صاحب نقد العقل العربي للعقل، فالعقل في الغرب المولع بالتفكير المنطقي والاستدلالي، منفتح على لا معقوله، أو منفتح على روحانيته، ولم ينفي عنه ذلك صفة العقل

الفلسفي، فلا وجود لعقل خالص منغلِق على ذاته في أي حضارة، ولا يمكن أن نحكم على أي حضارة من منطلق العقل البرهاني وحده، فابن الحضارة الصينية أو الهندية القديمة مثلاً لا يمكن أن يسلم للقائس بأن "التفكير في العقل" أسمى درجة في العقلانية من "التفكير بالعقل" فما هو أسمى من التكفير، سواء بالعقل أو في العقل، عند الصيني هو (السلوك) وما هو أسمى من التفكير عند الهندي هو "التحكم بالتفكير" بواسطة تقنية جسمية روحية مثل اليوغا من شأنها أن تحرر الذهن من إكراهات الجسد عن طريق ضبط حركته وإيقاعه وتنفسه" (جورج طرابيشي، 1996، ص 71).

لكل عقل معقولاً ما، يظهر أنه لا معقول في منظور عقل آخر، وهو ما يعطي للعقل فاعليته وحركيته ويبعده عن الانغلاق على ذاته، ويمنعه من التحول إلى جوهر ثابت وجامد، ويقول طرابيشي "رغم الاحتجاج الصارخ من قبل أحدث مؤرخي العقل العربي، عنيّا محمد عابد الجابري، على اللاسامية الرينانية المعممة، فإنه يعود إلى تبنيها "إبستمولوجيا" ويعيد إخراجها في صورة عنصرية جغرافية مخصصة، فهو لا ينكر أن نهر الفلسفة اليونانية قد قام بتحويلة شرق أوسطية، ولكنه لا يقر بهذه الحقيقة الواقعة التاريخية إلا ليضيف أن العقل اليوناني "البرهاني" قد تعرفن وتهرمس وتغونص، بقدر ما تشرق، ولم يقيض له أن يستعيد عقلانيته إلا بقدر ما عاد بمتغرب بعد طول تخبط في مستنقع اللاعقلانية المشرقية" (جورج طرابيشي، 1998، ص 17).

تسمية الجابري لمشروعه " نقد العقل العربي" ووصفه للعقل الذي يهتم بتحليله ودراسته بأنه "عقل عربي" جلب له نقداً قويا من كل الدارسين الذين اهتموا بمشروعه، ووجه الغرابة هنا هو ربطه للعقل بثقافة معينة ولغة محددة هي العربية، فالعقل إنساني بالتعريف هذا على المستوى الأول، على مستوى آخر تم الانتقال من عقل عربي مقابل عقل غربي أوروبي إلى عقل عربي منقسم على ذاته وهو عقل مغربي وعقل مشرقى الأول برهاني منطقي والثاني غنوصي غيبي، وهذا فيه كثيراً من التعميم الذي يحتاج إلى تدقيق وتفصيل في تاريخ العقل داخل الثقافة العربية الإسلامية، وهذا ما لاحظته طرابيشي في نقده لمشروع الجابري.

الإبستمولوجيا والإيديولوجيا:

تتحول الإبستمولوجيا إلى إيديولوجيا عنصرية جغرافية، ينقسم على ضوءها العقل العربي إلى مغرب عقلاني ومشرق لا عقلاني، روحاني، غيبي، غنوصي، فالعقل في المغرب برهاني وفي المشرق عرفاني صوفي، في المغرب أخذت الفلسفة ثوبا عقليا وازدهرت النزعة العقلانية، أما في المشرق فأخذت الفلسفة ثوبا دينيا عقائديا، ثنائية المغرب والمشرق هذه من أهم القضايا التي أثارها الجابري، وتم نقده بسببها إلى درجة إتهامه بالعنصرية والسقوط في شبك النزعات العرقية التي روجت لها الدراسات الإستشراقية المغرضة خصوصا، والحضارة الغربية وفلسفتها عموما وحامل لواءها الفرنسي إرنست رينان E.Renan الذي أسس للفتاوت بين النزعة الآرية و النزعة السامية، وبذلك تنتقل مع الجابري من الانقسام السياسي إلى الانقسام على أسس عقلية وفلسفية.

يذهب الجابري بعيدا في هذا الاتجاه الذي يقوم على التمايز التام بين المشرق والمغرب، فيجعل من الأول غروبا للفلسفة، ومن الثاني شروفا لها، بل في المشرق أخذت الفلسفة الضربة القاضية على يد أبو حامد الغزالي، يقول طرابيشي "ونظرية "الضربة القاضية" الغزالية، التي يتبناها الجابري نقلا عن "دي بور" في تاريخ الفلسفة في الإسلام، هي إما نظرية ساذجة أو سيئة النية. ساذجة لأنها تتصور أنه في مستطاع فقيه متكلم كان فضلا عن ذلك موظفا إيديولوجيا لدى الدولة السلجوقية أن ينهي بمفرده الفلسفة، وسيئة النية لأن الغرض المسكوت عنه الذي تقوم على أساسه هو أن الفلسفة العربية الإسلامية هشة بتكوينها وسريعة العطب بطبيعتها "المستوردة" (جورج طرابيشي، 1998، ص80).

التفكير بالمعجزة، هو الذي يجعل الجابري يربط بين تراجع الفكر الفلسفي وشخصية الغزالي من جهة، وربط الفلسفة بالمعجزة اليونانية وجعلها غريبة عن الثقافة العربية من جهة أخرى، ما يفكر فيه طرابيشي بخصوص الجابري، إنه انقياد وانصياع للمركزية الغربية، لكن الحقيقة أن مصير الفلسفة حسب طرابيشي هو نفسه في المسيحية والإسلام "فتاريخ الفلسفة في مسيحية القرون الأولى هو تاريخ قطيعة وغياب، ذلك أن العقيدة القومية والفلسفة ضدان لا يجتمعان، وكما أن العقيدة القومية لا تقبل فلسفة من خارجها، فإنها لا تفرز فلسفة من داخلها، وفي ظل هيمنتها يستحيل السؤال الفلسفي فالجواب النازع أكثر فأكثر إلى أن يتوحد ويتقنن هو النصاب الإبتسمي للعقيدة القومية" (جورج طرابيشي، 1998، ص66).

لا يتعلق الأمر بدين دون دين، فتقعيد وتقنين أي عقيدة دينية يؤدي إلى منع أي تفكير يتنافى مع قوانينها، وتكون كل الأسئلة والأجوبة مؤطرة ومقننة حسب القواعد التي تم ترسيمها وتثبيتها باعتبارها حارسا للعقيدة الصحيحة وهذا الأمر يتجاوز إرادة أي شخص، وليست له صلة بطبيعة أي عقيدة في حد ذاتها.

وبالتالي فالقول بالضربة القاضية للفلسفة في تاريخ الإسلام على يد الغزالي ينتج عنه حتما أصالة الفلسفة في المسيحية، وغربتها في الإسلام وهو أمر يحتفظ إزاءه جورج طرابيشي "فما قتل الفلسفة في مسيحية القرون الأولى قتلها للمرة الثالثة في إسلام القرون المتأخرة: تسنين العقيدة القومية.

وبدون أن نزع حسب طرابيشي أن ذلك هو السبب الوحيد للوفاة، فإننا لن نستطيع بدونه أن نجد تعليلا لا للوفاة قبل الضربة القاضية، ولا للضربة القاضية بعد الوفاة.

إن تسنين العقيدة القومية في الإسلام تعود بداياته الأولى إلى أحمد ابن حنبل (241هـ-290هـ) أو بالأحرى إلى الحركة التي قادها أهل الحديث وشريحة متعاطمة من الفقهاء تحت إسمه، والتي بلغت ذروتها مع ابن تيمية (661هـ-728هـ) الذي لقب بحق مجدد الحنبلية في القرن الثامن" (جورج طرابيشي، 1998، ص82).

لا يتعلق الأمر بمعجزة الضربة القاضية بل يتعداه إلى عمل متواصل من أجل تقنين العقيدة، وهو ما أدى إلى الحد من مجال استعمال العقل وتراجع الفكر الفلسفي، وفي هذا السياق يتحرى طرابيشي التدقيق عندما يقول "إننا نستطيع أن نندارك هذا التعميم وأن نحدث تمييزا في المصطلحات، فتحدث لا عن "أهل السنة القدماء" ولا عن "أهل السنة والجماعة" بل حصرا عن

"أهل الحديث والجماعة" بوصفهم الفرقة الوحيدة من الفرق الإسلامية التي مضت بتقنين العقيدة القويمة، إلى آخر الشوط، فقيدت النص بالنص، وألغت حتى الهامش الضيق المتروك للعقل في الاجتهاد على النص" (جورج طرابيشي، 1998، ص110).

لا يرى طرابيشي أن الإسلام كعقيدة يتنافى مع التفكير الفلسفي، بل يرى أن الأمر يتعلق بفرق ومذاهب إسلامية بعينها ضيققت من مجال العقل، ومنعت أي إجهاد عقلي في النص، وهذا لا يجب تعميمه على جميع المسلمين وبالتالي لا ينبغي ربطه بالعقيدة الإسلامية في ذاتها، وكأن في هذا طعن في التصور الرشدي الذي يستند إليه الجابري والذي يفصل بين الفلسفة والدين و يرى أن موضوعات الفلسفة ليست هي موضوعات الدين، وبسبب هذا الخلط يجرم الجابري ابن سينا، إذ يقول طرابيشي معبرا عن ذلك، "الجريمة المشرقية لابن سينا قابلة للتلخيص بعبارة واحدة: تدمير مدينة العقل في الإسلام ومن هنا فإن العقوبة التي كان المحتم أن يطلبها له ناقد العقل العربي، المتماهي مع دوره كمدعي عام، هي الطرد الأبدي من مدينة العقل التي يريد العرب المحدثون إعادة تشييدها" (جورج طرابيشي، 2002، ص14).

يضع الجابري المسؤولية كاملة على ابن سينا، فيحمله نتائج تغييب العقل الذي كان الممهد الحقيقي له والذي انتهى إلى نتائجها الأخيرة مع الغزالي، وهكذا رأى طرابيشي أنه بتقسيمه العقل إلى أنظمة معرفة ببنائية وعرفانية و برهانية، كان قد أخطأ الهدف وهو ما جعله "يخوض معركته الفاصلة ضد أبرز ممثلي العقل المكون في الحضارة العربية الإسلامية من أمثال جابر ابن حيان والرازي في العلم، والفارابي وابن سينا في الفلسفة، وأهل القياس في اللغة والفقه، وأهل الاستنباط في التصوف، منتصرا في الوقت نفسه لبعض من أبرز ممثلي العقل المكون ممثلا بنصية ابن حزم وتزمتية ابن تومرت وسلفية ابن تيمية" (جورج طرابيشي، 2002، ص69).

وكان طرابيشي يتعجب من النهاية التي انتهى إليها الجابري، عندما ينتصر في آخر المطاف لنزعة فقهية نصية على حساب نزعة علمية فلسفية، هذا في الوقت الذي يدافع فيه عن العقل ويؤسس من أجله مشروعا كاملا، وعليه ففي سياق المأزق التاريخي المستجد "فإن تصدي الجابري لنقد العقل العربي لم يتمخض رغم ضخامة العنوان إلا عن مشروع (مجهض) لأن الجابري تبنى لحسابه خطيئة عصر النهضة، بإعلانه عن عدم أزوف ساعة، الثورة اللاهوتية، وبالتالي عن ضرورة إرجائها إلى أجل غير مسمى" (جورج طرابيشي، 2002، ص69).

في الأخير، نستطيع القول أن النقد الذي خصصه طرابيشي لمشروع نقد العقل العربي يعتبر إضافة مهمة لهذا المشروع ذاته، كما أننا نرى بأن طرابيشي لم يكن مجرد ناقد لمشاريع الآخرين، بل إن النقد عند طرابيشي عميق وشامل لأنه صادر عن رؤية متكاملة لقضايا العقل العربي المعاصر، فهو ملم بتفاصيل المنظومة التراثية بشكل ملفت للإنتباه، كما أنه مطلع على تيارات الفكر الحديث، مما أهله لبناء رؤية عميقة ونقد دقيق يستحق الدراسة والبحث والتثمين وهذه الدراسة هي لبنة بسيطة في هذا الطريق، لذلك نخلص إلى بعض النتائج من خلال هذه الدراسة:

-نقد طرابيشي لمشروع نقد العربي كشف لنا عن العديد من المشكلات المنهجية التي يعاني منها هذا المشروع كعدم الكشف عن الكثير من مصادره ومرجعياته.

-كشف طرابيشي لعدم موضوعية الأحكام التي وجهها الجابري للفلاسفة المسلمين وخاصة ابن سينا الذي اعتبره الجابري أصلاً للغنوص واللامعقول.

-يرى طرابيشي أن الجابري أقام مشروعه على ثنائية المعقول واللامعقول وجعل الفصل بينهما كاملاً لا علاقة بينهما وهذا موقف غير موضوعي.

-يرى طرابيشي أن عصر التدوين الذي أقام عليه الجابري مشروعه الفكري هو عصر "مفبرك" وليس عصر التدوين كما حدث فيه تدوين العلوم والمعارف بالفعل.

-بذلك يكون طرابيشي وجهنا إلى نقاط أساسية وقضايا دقيقة للدخول في حوار جدي ومثمر مع مشروع نقد العقل العربي.

-مع ذلك فإن بعض الانتقادات التي وجهها طرابيشي لمشروع نقد العربي تحتاج هي ذاتها إلى إعادة نظر كأخذ على الجابري أنه لم ينتهي بمشروعه إلى إحداث ثورة لاهوتية في الفكر العربي، متناسياً السياق التاريخي الذي أنشأ فيه هذا المشروع النقدي الذي حرك كثيراً من قضايا الثقافة العربية وجعلها على محك النقد في المعرفة والسياسة والأخلاق.

خاتمة:

في ختام هذه الدراسة يمكننا القول أن ما قام به جورج طرابيشي لا يقل أهمية ما قدمه الجابري للفكر العربي المعاصر، لذلك من الضروري الإنتباه إلى أهمية مشروع "نقد العقل العربي" وقراءة المشاريع الفكرية العربية في إطار حوار جدي يمنح لنا الفرصة لتوحيد الجهود المبذولة في إطار كلي مشترك بدل تلك القراءات الذرية التجزئية التي لا تقدم لنا رؤية موضوعية متكاملة لإنجازات الفكر العربي المعاصر والتي تعطينا أحكاماً قاسية وغير موضوعية على هذا الفكر أحياناً، تصل إلى تسفيه الجهود المبذولة وتزرع المزيد من الشكوك حول مسيرة النهضة والتحديث وبالتالي زرع المزيد من الإحباط، لذلك نخرج في الأخير بهذه التوصيات التي نراها مهمة في هذا السياق:

-إنفتاح المشاريع الفكرية العربية المعاصرة على بعضها البعض ضرورة ملحة للمساهمة في تحريك الواقع العربي.

-النقد المنهجي الموضوعي وحده كفيل بترسيخ الحداثة الفكرية داخل المجتمعات العربية.

-الإعتراف بجهود المفكرين العرب المعاصرين خطوة أساسية على طريق تجديد مضامين الثقافة العربية التي تجاوزها الزمن وهذا ما قدمه طرابيشي للجابري رغم راديكالية نقده له أحياناً.

-التحول من نقد التراث القديم إلى نقد تراث النهضة والحداثة كنقد طرابيشي للجابري أمر مهم لتطور الفكر العربي وانتقاله من مرحلة إلى مرحلة أعلى منها.

قائمة المراجع:

1. جورج طرابيشي(1996)، نقد العقل العربي، وحدة العقل العربي الإسلامي، ط1، دار الساقى، بيروت، لبنان.
2. جورج طرابيشي(1998)، نقد العقل العربي، إشكاليات العقل العربي الإسلامي، ط1، دار الساقى، بيروت، لبنان.
3. جورج طرابيشي(1998)، مصائر الفلسفة بين المسيحية والإسلام، ط1، دار الساقى، بيروت، لبنان.
4. جورج طرابيشي(2002)، نقد العقل العربي، إشكاليات العقل العربي الإسلامي، ط1، دار الساقى، بيروت، لبنان.